العُنف في السياسة من منظُور فكر"مُوريس مرلوبُونتي".

أ.عبيد الله سليمة –جامعة وهران

يُمثل العُنف أحد أهم السُلوكات المُؤرقة التي عانت منها الشعوب في العالم الغربي وتحديدا في فرنسا .وكانت هنـاك مُحاولات عديدة للقضاء على هذا النوع من السُلوكات.و كان لتيار الفينومينولوجيا ـ داخل فرنسا والمُمَثَّل في شخص "موريس مرلوبونتي" ـ دور كبير في التطرق بالتحليل والمُعالجة لهذا الإشكال والذي ارتبط عنده تحديدا بالسياسة وتجذر فيها،لقد مثّل العُنف السياسي عائقا مركزيا لكل تأملات البحث لحياة مشتركة بين الأفراد داخل المجتمع والدولة ،مما صعب تحقيق بينذاتية اجتماعية مشتركة.ذلك أنه أسس لحياة عدوانية تستخدم القوة الفيزيولوجية والنفسية ضد الإرادة.فيكون فرديا كالحالة التي يُسيطر فيها فرد ما على الأخر،أو يكون جماعيا لمجموعة من الأفراد تُهيمن على شخص أخر.ليتم تدمير الآخرين ومن ثمة القضاء على مشروع التعايش1.

رَبَطَ مرلوبونتي موضوع العُنف في السياسة كغيره من الموضوعات التي عالجها بأفكاره التي إستمدها من فلسفته التي أسس لها ألا وهي الفينومينولوجيا الحسية وكذا الأنطولوجيا،لهذا كُنا نجده يجمع في معالجته للعُنف بين منظورين: بين تجربة التاريخ وأحداث العُنف من جهة وبين المعرفة وتاريخ الفلسفة والأفكار من جهة أخرى.أين ركز على العودة إلى العلاقة بين التاريخ والمعرفة،بين التفكير والعالم بمنظور واقعي ملموس خلال كل فلسفته:أي من فينومينولوجيا الإدراك إلى أخرها في المرئي واللامرئي،بحيث بحث موضوع العُنف بكشفه في علاقته بالتاريخ والمُجتمع كظاهرة ،حين وضّح الدور الكبير الذي يلعبه كل من التفكير والفلسفة داخل تجربة العنف2،تلك الفلسفة التي أسس لها والتي تُمكننا من تقديم الفهم الجيد لعالمنا ولمُختلف مواضيعه وكذا الإقامة الصحيحة فيه بعيدا عن تلك الموضوعية المُدعاة.فتكون منهجا يقوم بامتياز بتصحيح تاريخ الفكر والعنف والسياسة وغيرها من الموضوعات،فعن طريق الفينومينولوجيا إذا يكون الإنسان حاضرا للتعرف بطريقة أصيلة على عالمه وعلى مختلف موضوعات هذا العالم،عن طريق العودة المباشرة إلى الموضوعات والانفتاح عليها قبل أن تكون محلا للأحكام والبراهين،ودون التأثر بالأحكام المُسبقة وتقسيماتها الذاتية والموضوعية القائمة داخل العالم والمُطبقة على موضوعاته وأشيائه3،غير أنه يجب علينا الإشارة إلى أن الفينومينولوجيا التي أسس لها مرلوبونتي تختلف عن هوسرل.وإن كانت تحافظ على هدفها المنشود الذي جاءت به أول مرة مع هوسرل.على أنها العودة إلى الأشياء عينها،لأنه ومنذ أعماله الأولى في فينومينولوجيا الإدراك كان مرلوبونتي قد أكد هذا التحول الذي سوف يطال الفينومينولوجيا معه.فقد

عمل على إدراج وجود تجربة الذات الإنسانية كجزء من العالم،على أن الإنسان ليس فقط أنا مُتعالٍ شفاف كما كان قد حدّده هوسرل على أنه أنا واعي مسؤول عن وصف حقيقة الأشياء في العالم.بأن أسند وجود العالم إلى الفعالية التركيبية للذات.بل أن الأنا الإنساني جسدٌ أيضا.كائن اجتماعي موجود في العالم،وكل مايُحققه من معارف هو ناتج عن تجربته التي يخوضها في العالم بطريقة إدراكية مباشرة،على أن الحقيقة لاتسكن الإنسان الداخلي لأنه موجود في العالم ولا يعرف ذاته إلا فيه،وهو لايقصد بقوله بتواجد الإنسان مباشرة في العالم أن هذا الإنسان محكوم بتجارب هذا العالم وعلومه وقضاياه وكأنه منه،بل على العكس من ذلك أن جعله للإنسان بالعالم هو عمل على التأكيد بأن الإنسان هو بالدرجة الأولى موجه لهذا العالم،ومشكل له من خلال قدرته على التعرف عليه بعيدا عن فكرته التي يُكوّنها عن هذا الوجود،وعن معناه الذي يمنحه له،واستبدال ذلك كله بمُعايشته للعالم.إن ما أصبح مُستهدفا في بحث مرلوبونتي ليست هي ماهيات الوعي كما ورد ذلك مع هوسرل،بل أن وجودنا وكيفية قيامه الصحيحة والتزامنا الفعلي في العالم هو بالضبط مايجب علينا فهمه وتحويله إلى مفهوم يُمحور كل تمركزاتنا في العالم والقائمة على مفهوم الإدراك كطريق له.وإن كنا نجده يُقرُّ بالوجود الإنساني في العالم.فإن هذا العالم لايصبح عالما مُفَكَرًا فيه بالطريقة الهوسرلية.بل هو عالم يُعرف بطريقة إدراكية شاملة معيشة،وهو مايُوضح لنا ربطه للفينومينولوجيا بالوجودية،على أن الفينومينولوجيا سوف تصبح مهتمة بدراسة الوجود الإنساني المُلقى به في العالم،وفهمها لطبيعة اختباراته وخبراته وقراراته اتجاه الأخر،اتجاه الزمن،اتجاه الموت وغيرها من القضايا،بعد أن كان هوسرل قبلا يبحث بطريقة وصفية جواهر وماهيات هذه الموضوعات داخل الذات،جاعلا منها أنا متعالية خارج العالم.

إن فينومينولوجيا الإدراك تصبح تبحث إذا في معنى دلالة الأفعال والمواقف والأحداث الإنسانية في العالم،والمدركة بطريقة معيشة من قبل الجسد الإنساني في التحامه بها قبل أي قسمة بين الذات والموضوع.بربط هذه الموضوعات ببنية الوجود بعامة،ذلك الوجود الذي هو مكان أصل كل معنى ما،مايعني أن حقيقة أي شيء هو ذلك المعنى الكلي الجامع والشامل لجوانب هذا الشيء المحيطة به في العالم والمؤسسة لوجوده،لهذا نجد مرلوبونتي يرى أن مُشكل العنف لايُمكن فهمه فقط برده إلى العُنف المُتجلي والمُباشر ولكن أيضا إلى الجانب الروحي والديني وغيره،كما أنه لايُمكننا إذا أردنا أن نُعالج العنف في السياسة أن نُحدّده قطعا على أنه المُؤثر الوحيد كحديثنا عن الحرب مثلا،لكن يجب بالأحرى أن نجد سببه الحقيقي الذي أوجده والذي قد يكون عبارة عن إيديولوجيات أو مذاهب عقائدية أوغيرها 4:إن العالم الظواهري - يقول مرلوبونتي - ليس هو الكائن المحض ولكنه المعنى الذي يظهر من خلال تقاطع تجاربي مع تجارب الآخرين،ومن خلال تشابك كل التجارب،إنه لاينفصل عن الذاتية

والذاتية المُتبادلة اللتين تتوحدا باستعادة التجارب الماضية في تجاربي الحاضرة5،ليتم توحد التجارب عن طريق التجربة الجسدية التي كانت تكتسي دورا بالغا داخل فلسفته،فقد جعل منها تعبيرا ورمزا للوجود.ووجودا يفتحنا على العالم ولا يستكين أبدا في ذاته على أنه مُنهمك دائما في عدم فاعل يقدم لنا باستمرار عرضا للحياة،فأنا مثلا لا أستطيع أن أكون شيئا في العالم مُستكينا في ذاتي ونافيا لرابطة وجودي في هذا العالم،إن جسدي هو من يفتحني على العالم وهو من يجعلني في وضعية معينة6،وهي الحقيقة التي تؤكد لنا بأن الوجود في العالم هو وجود جسدي يقوم بالدرجة الأولى على وجود الجسد وليس على الوعي،وهو لايقوم بأمر معرفي ولا يتأسس على طريقة العلم وإنما يتم بطريقة معيشة،وهذا التأكيد لانفتاح موجود على العالم هو الأخر انفتاح يسمح لنا بالالتقاء بالأخر بطريقة معيشة7،فيكون الجسد الخاص هو ذلك الأساس الذي نعايش به الموضوعات وكذا الآخرين بطريقة أولية،لهذا فإن مرلوبونتي يسند للجسد مهمة جعلنا نكون من خلاله في اتصال أولي مع الآخرين،فعلاقتنا بالآخرين تعطينا بروزا لطريقة اتصال أولي بين الأشخاص قائم قبل كل اتصال أولي primordiale لكائن واحد بين جميع الأفراد،وهذا الاتصال الذي ينشأ ويستقر بيننا ليس وهما ولا يتأسس على وعي مشترك عقلي:إنه آت من فكرة أن الأخر هو عبارة عن ذات مدركة لي كما أكون أنا مدركا بالنسبة له في إدراكه الأولي6،مايُبيّن لنا إذا أن الوصول إلى اكتشاف الماهيات سوف يتم سوف يتم بطريقة إدراكية حسية من خلال تجسد جسد الأخر كحامل لسلوك هو الأخر أمامي،وأن العالم غامض بالنسبة لنا رغم حضوره الدائم وأننا مدعون للبحث في فهمه من جديد بطريقة صحيحة نُعيد بها تشكيله،يعني أن نُعيد طرح فهم علاقتنا بالموضوعات والأشياء،في أن نسعى إلى إيجاد الطريق الصحيح الذي يجب أن تكون عليه الأشياء لنجد الشكل الصحيح الذي يجب أن تُعاش وتُفهم وتُعرف به،هنا يجب أن نُراعي ونكشف حُضور إدراكنا الجسدي الذي يسكن موضوعاتنا وأدواتنا وكل عالمنا الحاضر أمامنا،فكلُّ موضوعاتنا يجب أن يُعاد بناؤها انطلاقا من اعتمادها على عمليات الإدراك.التي يقوم بها الجسد الخاص بإدراكه للآخرين ولأفعالهم وسلوكاتهم،ذلك أن شيء وأي موضوع ما بإمكانه أن يصبح معروفا لدينا بطريقة صحيحة.إذا كان خاضعا لإدراك الجسدي وجسد الآخرين كحاملين هم الآخرين لسلوكات،فأُصبح أُفَسِّرُ سلوكاتهم بالمقاربة مع سلوكاتي وتجربتي الخاصة التي تُعلمني معنى وغاية الأشياء المُدرَكة.لتُصبح أفعال الآخرين مفهومة بواسطة أفعالي وتُصبح أيضا أفعالي مفهومة بواسطة أفعالهم،فعن طريق إدراكي أكتشف وأصل إلى عالم الآخر،مايعني أن هناك تقاطعا لقُطبين من الإدراك:على أن إدراكي هو تبادل لتجربة أصيلة تحدث من طرف الآخر بحيث يكون إدراكي الأول

للعالم يظهر لي وكأنه تنفيد لاتصال أصيل لي مع العالم7،من هُنا يُمكننا القول أن العُنف كأحد المواضيع المطروحة من قبل مرلوبونتي سينبني في أساسه على فكرة الجسد،وعلى إدراكاته الحسية المُباشرة والتي كانت لها فائدتها الجليّة في إعادة بناء وفهم العلاقات الصحيحة والإدراكات الحقيقية التي يجب أن تكون موجودة بين الأفراد ببحثها وتأملها وإحلالها مكان المواقف والخطابات الكاذبة وكذا السياسات والإيديولوجيات المُعتمدة ومن ثمة تصحيح بعض الإشكالات والظواهر التي كان يعرفها الغرب ولعلّ أبرزها إشكالية العنف والصراعات التي كانت محل نقاشات،فقد انطلق في كل دراساته هذه من المنظور الإدراكي للجسد كطريقة حسية،وإن كنا نقول الجسد فإنه تجدر بنا الإشارة إلى أن هذا الجسد قد تحول في أخر فلسفة مرلوبونتي إلى لحم chair ليُصبح فهمنا للعالم ولموضوعاته قائم على علاقة بين لحم الجسد ولحم العالم.بعد أن كان في بداية فلسفته يراهن على العلاقات الإدراكية بين الجسد الخاص le corps propre والعالم.

يرفض مرلوبونتي ذلك الفهم العقلي للموضوعات وللعنف كأحد هذه الموضوعات.ذلك أن الفهم العقلي ينبني على دغمائية عمياء.تهدم كل أمل في تحقيق بينذاتية صحيحة،وتمنع الأفراد من العيش في تعارف وإقرار لأحدهم بالآخرين،ومن ثمة تهديهم لكل إمكانية ناجعة وإيجابية في ربط المساواة والتناسب والتناسق بينهم،لهذا فإنه لاينظر لإشكال العنف على أنه محدود فقط بعلاقة بالسلطة أو الحكومة أو الاقتصاد داخل مصلحة أو وظيفة مُعيّنة فقط،بل يجعل منه سؤالا يصب بداخل كل الإشكاليات التي تتوضح ضمن الفلسفة الفينومينولوجية الإدراكية وكذا الأنطولوجيا.التي تنبني على وساطة بين مفهوم اللحم ومختلف الموضوعات المطروحة للبحث وكذا بين اللحم والعُنف،فهو يبحث موضوعه بربطه بكل أبعاده المختلفة الحسية والوجودية ببحثها ليس فقط من وجهة نظر سياسية وإنما من جميع أبعاده بمراعاة كل الروابط المختلفة، بما أن طبيعة العُنف ذاتها مركبة.ليتم تحديد منظورات عامة تصون وتحافظ على علاقة الإنسان بالآخر والعالم8،ذلك أن التفكير في السياسة نفسها عنده يمتد إلى إشكال أنطولوجي.أي أن حقيقة التفكير في مشكل العُنف في السياسة كان متطورا ومتحولا إلى غاية فلسفته حول الوجود ونقصد بذلك مرلوبونتي المتأخر الذي راح يؤكد بأن الأنطولوجيا الصحيحة بإمكانها أن تسمح بتحقيق التجربة الحقيقية للوجود وكفيلة بإنتاج سياسة فعالة،لهذا فهو لم يفكر السياسة فقط من وجهة نظر برغماتية وإنما أيضا من منظور أنطولوجي،ذلك أن سؤال العُنف من وجهة نظر السياسة وعلاقته بها فإنه لايُحدد بموضوعات السُلطة،أو الحكومة،أو الاقتصاد،وإنما يتضمن الإشكالات التي تتضمنها الفلسفة المتعالية9،لهذا فهو وإن كان

يرجع هذه الظاهرة إلى أنها قائمة في عمقها باستنادها إلى أبعادها المختلفة:جانبها السياسي الغامض،وجانبها الاجتماعي البينذاتي في صراعاته حول الحريات وعلاقة الأنا بالآخر إلا أنه يُركِّز اهتمامه على الجانب الأنطولوجي في الموضوع،والذي يُمكِّن اللحم من مُعايشة العُنف،بإيجاد رابطة عميقة بين كل من العُنف والتعايش Coexistence بخلق إمكانية تعايش تكمل وتدمج في ذاتها تجربة الصراع والعُنف بدل كبحها وكبتها.لأننا كنا نحاول دائما رده وكبحه.لأننا لم نفهم حقا بعد التقاء حريات الأفراد والسبب الذي يجعل العُنف ينتج عنها،فلم نسعى لإيجاد مكان للتعايش، ولم ندرك بأن هذا العُنف القائم هو نتيجة الفهم الخاطئ وغير الشرعي للوجود الإنساني في العالم وكذا الوجود الجسدي للحريات الفردية.

الهوامش:

1- Gemma daou,violence,intersubjectivité et corporéité chez Merleau-Ponty à travers une lecture d'Emmanuel de saint aubert, université catholique de louvain,année académique 2008-2009,p4.

2- Ibid,p5.

3- موريس مرلوبونتي،ظواهرية الإدراك،ترجمة فؤاد شاهين،معهد الإنماء العربي،ص7.

4- Gemma daou,op.cit,p4

- موريس مرلوبونتي،المصدر السابق،ص516

7- Philippe Huneman,Estelle Kulich,introduction à la phénoménologie, Armand colin, paris,1997,p109-110.

5-Ibid ,p112.

6-موريس مرلوبونتي،ظواهرية الإدراك،المصدر السابق،ص284.

7- Philippe huneman,estelle kulich,op.cit,p110-111.

8- Gemma daou,p5-6.

9-ibid,p6.